نحو عقلية إسلامية واعية (٧)

الدولة الإسلامية والحكومة الدينية

محمد علي قطب

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م -

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ش.م.م ـ المنصورة

التوزيع : شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣

المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب – عمارة الوفاء

ت : ٣٤٢٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠ – تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَنْ يَهْدِهَ الله فهو المهتد ، ومن يُضْلل فلن تجد له ولياً مُرشدا .

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده ، خلق الإنسانَ فى أحسن تقويم ، ويعلم ماتُوسْوس بِهِ نفسه ، وهُو أقربُ إليه من حَبل الوريد ، يعلم خائنة الأَعْيُن ومَاتُخفى الصدور .

ونشهد أن محمداً عبده ورسُوله جاء بالرسالة الخاتمة ، والحنيفية السَّمْحَة ، والمحجّة البيضاء ، ليلها كنهارها ، فقدَّمتْ للبشرية أرقى نماذج الحكم والسُّلطان والنظام عبر الوجود الإنسانىّ الممتد فى عُمْق التاريخ مئات القرون وآلاف السنين .

فصلاة الله وسلامه على النبىّ الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين .

وبعد :

فإنه قد تلْتبس على عقول بعض الناس مِمّن لايعرفون الإسلام صورة التسلُّط باسْم الدين وتحكمِّها فى مصائر البشر ومسيرة الحياة الإنسانية .... ، كما تختلط خطوط ورموز الصورة بما ألفوه

وعرفوه من التاريخ القديم والحديث عن الحكومات الدينية من كهانة وإكليروس .... ، وماحفل به تاريخها من آفات وتجاوز . وخِزْى وعار ...

فـ (الجهْلُ) فى هذا عُذْرُهم ...

ولكن لاعُذْر لعارف عاقِل منصف ، ولالمسْلم ــ بالطبع والضرورة ــ أنْ يقول قَوْلاً على هذا النَّسق ، أو ينحو هذا المنْحى فى التجَنى والافتراء .

ذلك أن الشاهد التاريخى ، والأصول والقواعد الفكرية ، كحقيقة ماثلة ، يأبى التماثل ، ويرفض التجانس .

فالإسلام من حَيْثُ كونه الرسالة السماوية الخالدة التى أوحاها الله تعالى إلى خاتم رُسُله « محمدٍ » ﷺ ، كتابا غير ذِى عِوَج ، يهدى إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم ، هذا الإسلام لايُولِّى أحداً منَ (العباد) سُلطة القيامة على شؤون الخلْق ، أو يفوِّض إليهم حقاً ليْس لهم ، ليكونوا أرْباباً من دون الله .

والإسلام من حيث كونِهِ تاريخاً حيّاً ، وتراثاً حضارياً وإنسانياً ، لم تُوجد فيه ــ على الإطلاق ــ صورة الكهنوتية المتسلطة ، التى تَغْفِر لمن تشاء أو تُحْرم من تشاء ، ناشرةً صُكُوك الغُفْرانِ طولاً وعَرْضاً ، وتَبيعُها بالدرهم والدينار أحياناً !!؟

وليس فى الإسلام مايُسمّى بـ « طبقة » رجال الدِّين ، التى برزتْ فى التاريخ ، سواء قَبْل الميلاد أوْ بعده ، ثم نازعتْ وخاصمتْ طبقة الملوك والحكام ، فكانت لها الأولويَّة أحْياناً ، ولأولئك أحياناً أُخرى ...

لماذا ؟

لأن الإسلام لايفصل بَيْن الآخرة والأولى ، ولايُميِّز بيْن الطقْس التعبُّدىّ كالصلاة ـ مثلا ـ ، وبيْن الاستقامة فى كُلّ شأنٍ حياتِى يتمثل بالانضباط المسلكِىّ وِفْق الأحكام والنظام ؛ فكُل ذلك عبادة !!

نعم عبادة !!!

يقول الحق تبارك وتعالى ::

﴿ وما خلقْتُ الجِنّ والإنس إلا ليعْبدون ﴾ (١) ؛ فهل يتصوّر عاقل من الناس أن القصْد من ذلك هو انصراف الإنسان الدائم طوال حياتِهِ وعمره ، عن أمورِهِ المعيشية والحياتية إلى قيام وركوع وسُجُودٍ وصوم وحج فقط !!!

أبداً ...

---

(١) الذاريات ٥٦ .

لأن مفهوم العبادة أوْسع وأشْمل ، وأسمى وأعْمق من أن يَحُدَّهُ رسم ، ويضبطه شكل ...

هلاَّ لاحظنا مثلاً قول النبى ﷺ عن الزواج أنه « نِصْف الدِّين » .... ! وقوله أن « النظافة من الإيمان » ، وكثير غير ذلك من أقواله (عليه الصلاة والسلام) والتى لامجال لتعدادها ، وليس الموضوع موضوعها ، بقدْر مايهمنا الشاهد والدليل ... ، فالزواج أمْر حياتِى محض ، ولكنَّه من حيث الضرورة والنظام البشرى وسنَة الحياة والقواعد السليمة ... ، عبادة !!! وكذلك النظافة ...

وبعد ....

فإنَّه من أمانة القَوْل وواجب التبليغ والتَّذْكير ، أن لايغفل قلب الداعية ولسانه أبداً عن الصدوع بالحق .

والله المستعان

المؤلف



الدولة الإسلامية والحكومة الدينية !؟

إذا استثنينا بعض فتراتٍ قصيرةٍ فى التاريخ البشرىِ ، حينما كان يُدير دفَّة الأمور رجال يخشون الله ، نجد أن الجماهير كانت منذ فجْر التاريخ عُرضَة لسلسلةٍ متصِّلة من الاستغلال الذى لايرحم ..

ولئن كانت أساليب الاستغلال والتسخير قد تطوَّرت إلا أن الاستغلال نفسه ظل قائماً ، وهى حقيقة من الوضوح بحيث لايستطيع إنكارها باحثٌ جادٌ أمين فى التاريخ البشرى ، وإن صفحات التاريخ لمليئة بالحقائق التى توضح أنه إذا كان المستضعفون قد سلبهم حقوقهم المتجبِّرون من الملوك والفراعنة والقياصرة فى فترةٍ من الفترات معتمدين على سلطانهم ، فقد كان هؤلاء المستضعفون أنفسهم فى فتراتٍ أُخرى عُرْضة للنَّهْب بواسطة (البابوات) والقساوسة باسم الدين .

وإذا كان اسْم الملكيّة يُثِير فى مخيِّلتى صُور الفظائع التى ارتكبها ملوك (آشور) ومصر و (روما) ، فإن اسم الحكومة الدينية يذَكرنا بشرور طائفة الكهنة ، وإن الرجُل العادى ليصيبه الفزع حين يذكر الأيام الرهيبة التى كان فيها القساوسة و (البابوات) يتسلطون على الأوضاع السياسية فى الأقطار المختلفة ، وينصرف تفكيرُهُ فى الحال إلى الفترة التى كان فيها طائفةٌ من رجال الدين هُم كل شيْء فى الدَّولة ، وكانت كل الشؤون تجرى حسب نزواتهم

وأهوائهم ، أما المنطق والعدالة فلم يكن لهما مكان ؛ فكلمة رجال (الإكليروس) هى القانون ، والدولة تسير بقُوَّة محاكم التفتيش وآلات العذاب والإحراق ؛ ومما يَبْعث على السخرية والاستنكار أن كل هذه القسوة كانت ترتكب باسم الله !!! وفى سبيله !!!

هذه هى الصُّوَرُ التى تمر بأذهان الكثيرين حين يسمعون عبارة : [**الحكومة الدينيَّة**] .

وقد عُرِّف الحكم الدينى بأنه الحكم الذى يقوم على أساس دينى بشكل ظاهر أو مستور ، ويقوم بالأمر فيه طبقة الكُهَّان ، وفيه تنفرد طبقةٌ مُعيَّنة من الناس بحق معرفة مشيئة الله وكلامه ، ولها بحكم ذلك ، الكلمة الأخيرة فى كل شؤون الحياة .

وفى بعض الدُّول يحكم الكُهَّان مباشرةً باسْم إلهٍ واحدٍ أو عددٍ من الآلهة ، وفى البعض الآخر نرى المُلوك على رأس الدَّولة ولكنهم لايحكمون إلا بوصْفِهِم ممثِّلين للآلهة ، وقد يكونون هم أنفسهم رؤساء الكُهَّان ، أو يقعون تحت سُلْطة الكهنوتِ ورقابتهم ، ويمكن أن نسمىِ النوع الأول : (دُوَلاً كهنوتية) ـ خالصة ـ ، والنوْع الآخر : (دُوَلاً كهنوتية) ـ مقيدة ـ .

ومن النوع الأول تلْك الحكومة التى أقامها الأحباش فى [ميرو : Meroe] حيث كانت طائفة الكُهان هى كل شىء ، وكانوا يُعيِّنون من بينهم بعض أفاضلهم ، ومن بيْن هؤلاء

يختار الإلـٰه واحداً فى احتفالٍ مهيب ، ثم يعلن الشعب فى الحال خضوعه لهذا الكاهن المعيَّن ، ويوقِّرونه باعتباره نائباً عن الإلـٰه .

ولكن سلطة هذا الرئيس كانت مقيَّدة من كل ناحية بالقوانين الإلهيَّة ، وبظهور إرادة الله عن طريق الوحْى والكشف الذى كان يقع بصفةٍ مستَمرَّةٍ للكهان ، وبذلك حُدِّدت خطواته كُلها بطقوسٍ دقيقةٍ لم تترك له مجالاً للتَصرُّف الحُرّ ، فقد كان الكُّهان يصحبونَهُ فى كُلّ مكانٍ ويتعاونون معه ، بل إن حياته نفسها لم تكن فى أمان ، فإذا ظهر للكهنةِ أن الله غضب عليه فإنهم يُعْلِنُونَهُ بالغضب الإلهىٰ ولايبقى له إلا أن يُطْفىء غضب الإلـٰه بالتضحية بنفسه مُختاراً .

ومن نوع (الدُّول الكهنوتية) ــ المقيدة ــ تِلك التى قامتْ فى مصْر ، ولقد كانت الآلهة ــ حَسْب الشائع المعروف المألوف تحكم فى البداية بطريق مُباشر ، ثم بعد ذلك وُجد ملوك من البشر ، ولكن كان يُنْظر إليهم إمّا على أنهم آلهة ، أو من نَسْلِ الآلهة ، وكانت سُلْطتهم محددة تماماً بالقوانين الإلهية والنظم الدقيقة وبسُلْطان طبقة رؤساء الكُّهان حتى صارت القوانين الإلهية تخيّم على حياة الملك كلّها .

حقاً ... إنه لم يكن من الممكن محاكمته فى حياته ولكن الكهنة كانوا يعقدون عقب موْته محكمةً شعبيّة جليلة ، يقرِّرون

فيها ماإذا كان الملك قد عاش حياته متبعاً القوانين الإلهية آم لا ، وكانت كرامة الملك وشرفه عند ذرِّيته واستقبال روحه فى الدار الآخرة ، بل وبعْثه ، تعتمد على نتيجة هذه المحاكمة .

وقد كانت الحال فى الولايات الهندية القديمة مشابهة لذلك ، فقد كان ينظر إلى الملك على أنَّه أحط من (البرهمىّ) منزلة بكثير ، ولكن زادت قيمة المُلوك بمرور الأيام فى أنظار الناس حتى ارتبط شخصه بنوع من القداسة ، فحسب قوانين « مانو » (Manu) يعتبر جسم الملك طاهراً مقدساً لأنه مكوَّن من عناصر نجد أصلها فى حراس العالم الثمانية ، وقد خلقه الله لحفظ المخلوقات جميعاً ، وليس لأحدٍ أن يحتقره ، حتى فى مخيلته ، فيقول عنه أنه مجرّد إنسان ، فإن قُوَّةً إلهيةً عظيمة تكمن فى داخله ، وكان هؤلاء الملوك الهنود دائماً محاطين بالكهنة كما كان من الضرورىّ أن يرفعوا إلى رتبة الكهنة عند اعتلائهم العرش .

ولقد استطاع الملوك بمرور الأيام أن يزيدوا من سُلْطانهم بإضافة أقاليم أُخْرى إلى مقاطعاتهم حتى تمكّنوا من إضعاف سُلْطة الكاهن ، وأصبح يُنْظر إلى الملوك على أنهم (وكلاء) عن الله القدير فى الأرض ، لايستطيع أحد غيره أن يُسْقِطهم عن عُروشهم ، وهو وحده الذى يحِقُّ له أن يطلب وكلاءَهُ [الملوك] ليحاسبهم على سلوكهم وليس ذلك لأحدٍ من البشر .

ومن أفضل أمثلة الحكم الإِلهى فى العصر الحديث

حكم (رُهْبان) الديانة (اللاَّميّة) ـــ (Lamas) فى (التِّبيت) ، وملوك اليابان ؛ فإن الحكام هناك يُعْتبرون (آلهةً على الأرض) ، وتنظر إليهم شعوبهم بكل توقير واحترام .

ويخبرنا الكاتب الشهير : [جون جنتر] فى كتابه : (فى داخل آسيا) بأن جميع المنافذ تُغْلق حين يمرّ ملك اليابان (الميكادو) خلال الطرقات ؛ وليس من حق أحدٍ أن يبنى بيْتاً أعلى من بيْت الملك ، أو أن ينتقد أعماله ؛ بل هو معبود اليابانيين الذين يعتقدون أنه معصوم .

وأشهر أنواع الحكْم الإلٰهى هو الناموس (الموسوى) عند اليهود ، فقد بُنِى على أساسٍ من الدين الخالص ، وكان اليهود يعتقدون أن الملك إن هُوَ إلا الإلٰـه نفسه : [يهوذا ، أو :الله : jehoyah ـــ يهوه] :

(وكان هو المشرع والحاكم ، وكان يُنْظر إلى مجموعة القوانين التى نسمّيها الموسويَّة على أنها وحْى من عند الله الذى كلَّمه موسى وحده فوْق قمة الجبل وتلقّى مشيئته بخوْف ووجل ، ثم بلَّغها إلى الناس بصِدْق ووفاء ، وكان الرعْد والبرْق هما اللذان أظهرا وُجُود الله فوق جبل سيناء) .

وبمرور الأيام أحسَ اليهود كَكُل دُول الحكْم الإلٰهى

بضرورة وجود ملك ، فأجاب (يهوذا) طلبهم ناطقا على لسان القاضى (صموئيل) الذى واساهُ هُوَ الآخر بقوْله :

(أنْصِتْ لصَوْت الشعب فى كل مايقول لك فإنهم لم ينبذوك أنت بل نبذونى أنا حتى لا أحكمهم)

وهكذا انتقل الحكْم من الكُّهان إلى الملوك .

ونحن إذا درسْنا تاريخ الحكْم الإلٰهى نجده قد مرَّ بثلاثة أطوار متباينة :

ففى البداية كان الحاكم هُوَ الإلـٰه بنفسه ، وكان الملوك والكُهَّان أدوات الإلـٰه وأعوانه ، ثم انتقل الحكم شيئاً فشيئاً إلى أيدى رجال الكهنوت برئاسة ملك كهنوتى ، ثم فى مرحلةٍ متأخِّرة ملك عسكرى ، وأخيراً أصْبح الملك نفسه يُقَدَّس باعتباره إلـٰهاً ، وبذلك نشأ استبداد أُناس أُعتُبِروا فوْق البشر .

ولكن مهما اختلفت أشكال الحكم الإلٰهى فإنها تتَفق جميعاً فى أنها نَوع من الحكْم ينظر فيه إلى الشخص أو الأشخاص القائمين بالأمر على أنهم مخلوقات (عُليا) جعلها الله القادر أعلى من مُسْتوى البشر العادى ، وبذلك أصبحت حكومات مُقَدَّسة ، وبمعنىً آخر : حكوماتٍ مطلقة ، وكان الحكام : (البابوات والأباطرة والملوك)

يمثلون بذلك كل ما للإله من سُلْطة

ولقد كان من سوء حظ البشرية حقاً أن أصبَح يُنْظر إلى الحكومة الإسلامية على أنها حكومة دينيَّة بهذا المفهوم الذى تحدّثنا عنه ، وقد وقع فى هذا الخطأ كثير من المسلمين .

فإذا أردْنا أن نحلِّل العوامل التى أدَّت إلى هذا الخلْط فى الفهْم وجدنا هذيْن العامليْن من أهم الأسباب :

العامل الأول : ينظر الإسلام على أنَّه (دين) بنفْس المعنى الذى تستعمل به هذه الكلمة فى أغْلب الأحوال ، مما أحدث كثيراً من الخلْط .

العامل الثانى : من سوء الحظّ أننا نتجاهل الاختلاف بيْن أغراض نشوء الحكومة المسيحية الأولى وأغْراض نشوء الحكومة الإسلامية .

وَلْنَبحث الآن هذيْن العامليْن بالتفصيل :

أولا : لقد أصبحت كلمة (دين) بتأثير التيارات القويَّة غير الإسلاميَّة فى حياتنا العقلية والفكرية لاتعنى أكثر من مجموعةٍ من الطقوس والشعائر ، أى أنَّه ـــ أى الدين ـــ علاقة خاصّة بيْن الله والإنسان .

ومن سوء الحظ أننا ننسى أن الأمر فى الإسلام يختلف عن هذا تماماً فهو ليس ديانةً من هذه الديات التى لاتعتبر أكثر من خطةٍ للخلاص فى الآخرة ، بل هو دستور كامل للحياة الإنسانية ، وليس هُناك فصْل بيْن الشأن الدنيوىّ والدينىّ ، أو بيْن المادى والروحىّ فى هذا النظام الإسلامىّ الشامل ، بل إن الدساتير والقوانين الاجتماعية تدخل جميعها فى نطاق الدين ، ولذلك لم يكْتَفِ « محمد » ــ ﷺ ــ بغرْس الاتجاه الأخلاق فى نَفْس الفرْد بل قصد مُنْذ البداية إلى تحويل هذا الاتّجاه إلى نهج اجتماعيٍ واضح يشمل الحياة فى الدنيا والآخرة ، وبذلك يحمل المسلمون قِيَماً خُلقِيَّة خالصةً ودائمة ، فليست مهمّة المسلمين إذن أن يتصلوا بالخالق اتصالاً يمسّ أرواحهم ولايخالطها ، بل مهمَّتُهم أن يستضيئوا فى كل حياتهم ونشاطاتهم ، سواء كانت فردية ، أو جماعية ، بنور الخضوع الكامل لإرادة الله .

ثانيا : أن الإسلام وحده هو الذى يَنْبَغى أن يكون كل شىء فى حياة المسلمين وأن يكون محط أنظارهم فى البداية والنهاية .

أما التعاليم المسيحيَّة فلا تشمل إلا جانباً من الحياة ؛ وهكذا عندما أصبحت المسيحية دينَ الدولة خلال العصور الوسطى لم يستطع القائمون على أمر الكنيسة أن يمنحوا الناس دستوراً شاملاً للحياة ، وكان كل ماأعطوه لهم هو بعض العقائد والآمال السامية ، أكثرها من عِنْد الكُهّان أنفسهم ، فتحول المحْور بذلك

من المثل الأعلى المسيحى إلى البابوات والقساوسة ، ولمّا كان هؤلاء منتشين بتأثير السلْطة فقد وَضَح الاستخفاف فى سلوكهم وأعمالهم فَأصْبَحوا يُصْدرون آرائهم الشخصية على أنها كشف ربَّانى .

وهكذا أصبح المثل الأعلى للجماهير هو آراء رجال (الإكليروس) الشخصيّة بعد أن كانت تعاليم المسيحية .

والحقيقة أن رجال (الإكليروس) سايروا المجتمع بَدَلَ أن يوجِّهوه ، وفسد كثير منهم بتأثير الثروة والسُّلْطة ، فلقد أصْبح للأساقفة أملاك وإقطاعيات عديدة ، كما حمل بَعْضُهُم لقب : (دُوقْ) بل وصل الأمر أن حمل البعْضُ لقب : (أمير) .

ولقد أدَّت هذه الطائفة من الامتيازات التى لاتَتفق مع طبيعة الرسالة الدينية إلى مناقشةٍ طويلةٍ بيْن النُّبلاء ورجال (الإكليروس) ... ، وإذا كان نُبلاءُ الإقطاع قد خلطوا السيادة بالثروة فإن رجال (الإكليروس) خلطوا السلطة الزمنيّة بالسلطة الروحيّة ، وفقدوا تماماً التَّفْرقة بيْن الاثنيْن ، لقد استغلوا التأثير الدينى لا لِنَشْر مبادىء السيّد (المسيح) ــ عليه السلام ــ بل لتوسيع أملاكهم .

وكانوا يدّعون أنهم الوسائط الذين يتقرب المرء إلى ربِّه عن طريقهم ، ولذلك كانت الطقوس والشعائر الدينيَّة تُؤَدى عن

طريقهم وتتم بأيْديهم .

وكانُوا يُعْتبرون لسان الله الذى يتكلّم به إلى الناس .

وهذا وصف يبيّن كيف كان كبير الكهنة فى الديانة اليهودية يتلقى مباشرة أوامر (يَهْوَه) أو : الله ، ويعلنها على الناس .

يقول الأستاذ « بلَنْتشلى » : « **Bluntshli** » :

(كان القانون الإلٰهى محفوظاً فى تابوتٍ مطلىٍّ بالذهب ،ويرتفع فوقه عَرْش الرحمة الذى يحرسُه زوْج من الملائكة ويقدّسونه باعتباره عرش الوحى الإلٰهى ؛ وكان التابوت وعرْش الرحمة معاً مخبئين وراء ستارة فى " قُدْس الأقداس " داخل الهيكل الذى كان مأوى الإله وكان الكهنة يحرسونه بعناية شديدة وهناك تُتلقّى أوامر (يَهْوه) ــ الله ــ ، ومن هناك تُذاعُ على الناس) .

وهكذا ... ، كان من حقّ الكُهّان وحدهم أن يقرروا الحلال والحرام وكانت كلمتهم قضاء من الله وبهذه الطريقة أصبحت طبقة الكهان هى المصدر الوحيد للقوانين ، وألزموا الناس باتباع أوامرهم بدلاً من اتباع أوامر الله .

ولقد لخّص القرآن الكريم هذه الحالة الأسيفة التى صاروا إليها بقوله سبحانه :

﴿ اِتّخذوا أَحْبارَهُم ورُهْبانَهُم أَرْباباً من دُونِ ٱللّهِ ﴾ . (١)

وإن كل دارس للقرآن الكريم يعلم تماماً أن نُقْطة الخلافْ الأساسيّة بيْن أنبياء الله وبيْن الكُفّار كانت حَوْل مقدار سُلّطان الله تعالى .

فالقرآن الكريم يقول : ﴿ قُلْ لِمَنَ الأرض ومَنْ فيها إن كُنْتُم تعلمون * سيقُولُون للّهِ ..! قُلْ : أفِلا تذكّرون * قُلْ : مَنْ ربُّ السماوات السَّبْع ورَبّ العرْش العظِيم * سيقولُون لله ..! قُلْ : أفلا تتّقون * قُلْ : مَنْ بيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شيْءٍ وهو يجُير ولايُجارُ عَليْهِ إن كُنْتُم تَعْلمون * سيقولون لله ... قُلْ : فَأنّىٰ تُسحَرون * بَلْ أتيناهُمْ بالحقِّ وإنّهمُ لكاذبون ﴾(٢)

هذه الآيات البيّنات توضحُ بشكْل كافٍ أن المشكلة لم تَكُن حول وجود الله أوْ عَدَم وجوده ... ، بل لم يكن الجدال حوْل مَن خلق السماوات والأرض ... ، وإنما تركّز الخلاف حوْل نقطةٍ واحدة ، وهي أن الله تعالى بالإضافة إلى كونه خالق الكوْن هو أيْضاً : القيّوم .. ، والرازق ... ، والمشرّع .

فإذا قال القرآن : ﴿ اتَّخذوا أحبارهُم ورُهّبانَهُم أرْباباً من دون

---

(١) التوبة ٣١ .

(٢) المؤمنون (٨٤ ـــ ٩٠) .

الله ﴾ فمعنى هذا أنَّهُم عبدوهم عمليّاً وإن لم يتوجّهوا إليْهم في شعائرهم بالعبادة ، فقد كانوا ينتظُرون منهم الْغَوْث والإرشاد والعوْن والْعِوَض ، وكانوا يتبعون أوامرهم بدلاً من أن يتّبعوا أوامر الله في مسالِكِ حياتهم ، وكان هدفهم الأول إرضاء نفوسهم لا إرضاء ربّهم .

وهذا الأمر بغيضْ إلى الإسلام ومُنْكر ، كما يعلمه كل دارس للقرآن ، فاهم لقواعده في العقيدة ، وعالم بُمّجرياتِ الأزمان والأحداث ؛ فقد كان أنبياء الله « صلوات الله وسلامه عليهم » يعظون الناس أن يرفضوا ويتبرّؤا من كل حوْلٍ إلاّ حوْل الله وقدرته ، وكانت رسالتهُم أن يُخلّصُوا البشر من هذا الظُّلمْ ... ، من العبوديّة لآلهةٍ زائفة ... ، ومن تسلُّط الإنسان على الإنسان باسْم الألوهية ، ومن استغلال القويّ للضعيف ، ..

يقول عَزَّ مِنْ قائل : ﴿ ماتَعْبُدون من دونِهِ إلا أسْماءً سمّيْتُموُها أنتُم وآباؤكم ماأنزل اللهُ بها من سُلْطان * إِنِ الحُكْمُ إلاّ للهِ أمَرَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إيّاه ذلك الدينُ القيِّم ولكن أكثر الناس لايَعْلَمُون ﴾ (٢)

وهذه الآيات تدل على أن السلطان لله وحده ، وليس من

---

(١) التوبة ٣١ .

(٢) يوسف ٤٠ .

الناس مَنْ هُو مُفَوَّض لوضْع القوانين حَسْب مايرى ، وليس المسلم مطالباً بأن يُساعد على قيام أمثال هذه القوانين .

إن سُلطان الله تعالى ليْس قاصِراً على مجال القوانين الطبيعيّة ، بل إن سلطانه في مجال القوانين الاجتماعية والسياسية ليس أقلّ من ذلك فاعليّة .

والقرآن الكريم يعرض هذا المعنى بوضوح فهو يُسمى الله — تعالى — ملكاً على البشرية : ﴿ قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الناس * مَلِكِ الناس * إله النّاس ﴾ (١)

وكذلك يُعْلن القرآن أن الله تعالى لاشريك له فى سُلْطانه : ﴿ ولم يَكُنْ له شريكٌ في الْملْك ﴾ (٢)

وحقّ التشريع — هو في الحقيقة — ملْك للهِ وَحْدَه :

﴿ ألا لَهُ الْخَلْق والأَمْر ﴾ (٣)

﴿ اتَبِعُوا ماأُنْزِل إليْكُم من رَبّكُم ولاتتّبِعُوا مں دونِهِ أوْلياء ﴾ (٤)

---

(١) الناس ١ —٣ .
(٢) الإسراء ١١١ .
(٣) الأعراف ٥٤ .
(٤) الأعراف (٣) .

إن هذه الآيات تعلن بعبارة واضحةٍ أنه ليس لواحدٍ من الناس مهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ تقّواه ، ولا لأيِ أُسّرةٍ أو طبقةٍ أو جماعةٍ من الناس أن تدعي لِنفْسها سُلْطاناً على البشر ، بل إن الأنبياء أنفسهم لم يكونوا إلاّ مُتَّبعين لأوامر الله .

ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم على لسان سيدنا « محمد » ﷺ : ﴿ إِنْ أَتّبع إلا مايُوحى إليّ ﴾ (١)

وتُعْتبر الدولة الإسلامية (حكومةً دينيةً) إذا قُصد بذلك أنّ أُسسها قد جاءت من عند الله ، ولكنها تختلفْ اختلافاً تاماً عن مفهوم وصورة الحكومة الدينية التي عرفتها أوروبا وقاستْ من ويْلاتها وشرورها ، حيْث وُجدت طبقة من الكنهة آعتُبرت متميّزة عن الناس ، ولها عليهم سلطان لاحدَّ له ، ففرضت على الناس ــ باسم الله ــ قوانين من صُنعها هي ، وهي بهذا تفرض أُلوهيتها (المصطنعة) !!

فلا يمكن اعتبار مثل هذا النظام نظاماً إسلامّياً ، بل هو نظام شيطاني .

أما النظام (الحكومة الدينية) الذي يُقيمه الإسلام فهو نظام

---

(١) الأحقاف (٩) .

لاسلطان فيه لطبقةٍ دينيةٍ معيّنة ، بل الأمر فيه للمسلمين جميعاً ، صغيرهم وكبيرهم ، ويقوم الشعب المسلم كله بإدارة الدِّوْلة ، حَسْب كتاب الله وسُنّة نبّيه ﷺ .

وعلى هذا الأساس والتصوُّر لانستطيع أنْ نُسمّيها حكومة دينيّة مَحْضة ، أوْ حكومة ديموقراطية محْضة !!! بل نُسمّيها بآسْمها : (دولة الإسلام) و(نظام الشُورى) .

والذي يدعو إلى المفارقة بيْن نظام الإسلام وبيْن الديموقراطية ، أن الديموقراطية تَعْتبرُ (الشعب) مصدر السُّلْطة في التشريع والحكْم ، والإسلام لايسلّمِ لأحدٍ من الناس بهذا الحقّ الإلهي المحض .

هذا ... آحد الفروق الأساسية بين الحكومة الدينية وبيْن الحكومة الإسلامية (حتى كسُلْطةٍ إدارية تنفيذية ...)

وقبل أن ننتقل إلى نقطةٍ أُخرى نُحِبُّ أن نوضّح أمراً ونقوِّم خطأً يقع في تصوُّر البعض حين تذكر هذه الحقيقة : (أنه لاتوجد في الإسلام كهانة) ؛ وهذا التوضيح قد أصبَح ضرورياً لما تجمَّع حوْل الموضوع من خلْطٍ كثير خاض فيه الناسُ إلى درجة أن المفهوم الأساسي للدولة الإسلامية كاد أن يُصبْح مدعاة سُخرية ...

فمن الحقائق التي لاتُنكر أن دين الله تعالى ليس حقّاً وراثيّاً للقِلّة المختارة ، ولا هو احتكار لأِحدٍ ، بل إن كل مسلم خليفة لله في الأرض ، وهو ــ لذلك ــ يقف على قدم المساوة مع الآخرين ، فليْس لأُحدٍ فَضْل على أَحَدٍ بسبب نَسَبِهِ الرفيع !! ؛ والمجتمع الإسلامي مجتمع لايعرف الطبقات ، فليست هناك كنيسة ، وليست هناك جماعة من الناس ذات مميزاتٍ ومنافع خاصة ، ولكن إذا حَلاَ لأحدٍ من الناس أن يستنتج من ذلك أنّه لمّا كان الجميع متساوين أمام القانون في الدولة الإسلامية فينْبغى أن يُنظر إلى الجميع أيْضاً على أنهم متكافئون في القدرة على شرْح القانون وتطبيقه ، فليس هناك ماهو أسْخَف من هذا الرأى وهذا الاستنتاج ، فليس معنى قولنا : بأنه لاتوجد كهانة في الإسلام ، أنَ كل إنْسانٍ مهما بلغ من جَهْله وتفاهته صاحب حقٍّ في فَهْم القانون وتفسيره .

إن الإسلام بالتأكيد ليس مِلْكا لطبقةٍ معيّنة ، ولكنه كذلك ليس أُلعوبةً في كُلّ « زيْد » و « عَمْروٍ » من العاجزين الذين لايصحّ الاعتماد عليهم في شيء !!؟؟

والحقّ ، أن شَرْح تعاليم الإسلام ، كما يقضِى بذلك المنطق ، هو حقٌ لمن هُمْ أهْل لذلك فقط ، فإذا قُلْنا إنه لارهْبنة ولاكهنوت في الإسلام ، فمعنى ذلك أن فَهْم الإسلام ومعرفته ليس من حق

سُلالةٍ معيّنة من الناس ، كالذي يحدُث في الديانة (الهندوكيه) فإن معرفة الكُتُب المقدّسة عندهم مُيسَرة لِ (البراهمة) وحدهم ، أما بالنسبة للمنبوذين : (Suhdaras)فهى فاكهة محرّمة .

أما الإسلام فعلى العكس من ذلك ، يفتحُ أبْواب المعرفة لكُلّ فردٍ دون نَظَر إلى منزلته الاجتماعية ، ولايمنع أيَّ فرْدٍ من الحصول عليْها ، فليس هنا نظام (برهمّي) يحتكر لنفسه المعرفة بالدين ، بل يستطيع كل فردٍ أن يدرس كتاب الله وأن يُصْبح من العلماء فى المجتمع الإسلامي ، فإذا ران لإنسانٍ أن يشوه هذه الفكرة بأنْ يظن أن كل فردٍ له الحق في توضيح الإسلام وشرحه مهما انحطت أخلاقُه وملكاتُهُ العقلية فإنه يدلّ بذلك على جهله بروح الفكرة ذاتها .

إن تفسير الأحكام (الاجتهاد) إذن هُو من حق أهل العلْم والاستقامة وحدهم ، على حين أن مفاتيح العلْم موضوعة في متناول يد أي إنسان ، مادام على استعدادٍ لأن يَفْتَح بنيةٍ طيِّبةٍ خزائن الإسلام .

ونقطة الاختلاف الثانية بين الحكومة الدينّية وبين حكومة الإسلام (نظام الإسلام السياسي) خاصة باختلاف التصوّرات وْالمُثُل العليا لكُلٍّ منهما ، فقد رسخ في عقول الجماهير بعد إنشاء

الكنيسة المسيحية أن الحكومة جاءت نتيجة خطأٍ ، ولذلك فهي شَرّ مَحْضَ ، فإن الله تعالى فرض المجتمع المدنّي على النوع الإنسانى ، وليست الدولة إلا (غُرْفَةَ التعْذيب) !! التي سجنت فيها البشّرية الخاطئة لتُكفِّر عن خطيئتها ، فالدولة عند هذه الجماهير نظام شيطانيّ دَنِس ؛ وليس من واجب المؤمنين أن يغيِّروا من فساد الجهاز السياسي شيئاً ، بل عليهم أن يتحّملوا الآلام تكفيراً عن (جريمتهم الأصلية) !!

فلقد جاء على لسانِ « كُولْنِز » : (C,olins)في محاضرته الشهيرة : (الوحْدانية عند الكاثوليك والبابويّين) ,Unity) (Cathlicand Papa: [أن الكنيسة نوع من المجتمع أَرْسى قواعده الإلٰه بنفسه دون الإنسان ، ولذلك فإن أي محاولةٍ لإِحْداث أي تغيير بسيط سوْف تقودُنا إلى الضلال ، وعلى الناس أن يتحّملوا كل أنواع الآلام بالصَّبْر الجميل]

ومن الأمور ذات المغزى أن (القدّيس بولس : ST. Poul)في الوقت الذي كان فيه الامبراطور الروماني « نَيرون » يعذِّب المسيحيين ويضطهدهم ، خاطب الرومانيّين بهذه الكلمات المشهورة : [لتكُنْ كُلُّ روُحٍ من الأرْواح في خضوع تام للقُدْرة العُلّيا ، لأنه لاقُدْرة إلا قُدرة الله ، وكل مادون ذلك من القوى فهي من قِبَلِ الله] ؛ فكانت النتيجة لذلك هي تبرير الاستبْداد

وتسْويغه .

إن هذا الرأْي مخالفٌ تماماً لتعاليم الإسلام ، أوّلاً : لأن الدولة أو المجتمع في القرآن الكريم ليْسا (غرفة تعذيب) يسجن فيها الفرد ليُكفِّر عن أخطائه ، بل هي الجهاز الذي يمكننا من أن نحقّق عمليّاً تلْك المثل العليا عن العدالة الاجتماعية والمساواة التي سنّها سيدنا رسول الله ﷺ للبشريّة .

إن الإسلام كما أشَرْنا سابقاً ــ ليس مجرَّد علاقةٍ خاصةٍ بيّن الفرد وربّه ، بل على المسلم أيْضاً واجبات ضخمة تجاه البشرية والإنسانية ، وهذا الهدف لايمكن تحقيقُه إلاّ في مجال اجتماعي ، ولهذا .. فليس إنشاء الدولة (معْصيةً) ...! بل هي شرْط لازم لوجود العدالة الاجتماعية والحياة الخيِّرة عند الأفراد .

لقد قيل عن « المسيح » ــ عليه السلام ــ: [إنّ ملكوت السّماء هو في داخلك] ، وهذا حق ، إذ لايمكن أن يُقام على الأرضِ سُلطان عادل بواسطة أفرادٍ ظَلَمةَ ، لم يدخل بَعْدُ في قلوبهم ملكوت السماء .

ولكنَ الإسلام يقول إن هذا وحده لايكفي فإن ملكوت السماء في الداخل لابُدّ وأن يَبْرُزَ على هيئة ملكوتٍ للسماء على الأرض

حتى يقوم جهاز الحياة الإِنساني على أُسُس الحبّ ، والأخوَة والعدْل .

على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن الدوْلة الإِسلامية ليست غايةً في ذاتها ، بل وسيلة لغاية ، هي ؛ إيجاد طائفةٍ من الناس يقفون بجانب الحق في حرْبه مع الباطل ، وبعبارة أخرى لِخَلْقْ أوضاع اجتماعية تمكّن أكبر عددٍ مُمْكن من الناس أن يعيشوا حياةً روحيَّةً وماديّةً تتفق وتعاليم الإِسلام .

ولقد لخّص القرآن الكريم مهمة الدَّوْلة في إيجاز بليغ حيث قال : ﴿ الّذين إنْ مكَّنّاهُم في الأَرض أقاموا الصّلاة وآتُوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر ﴾ . (١)

قد تبّين أن وظيفة الدولة الإِسلامية ليست مقصورة على حماية الناس من الهجوم الخارجي أو الاضطراب الداخلي ، بل إن عليها كذلك أن تمكن الفرد ـــ رجلاً كان أو امرأة ـــ من السير حسب مايرى الإِسلام في عقيدته وفي شؤون حياته العملية من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فإن استطاعت الدولة أن تقوم بهذه الوظائف أمْكن أن تسمّى بحق : (خلاقة الله في الأرض) ، وإلا فإن من أعظم الأخطاء في حق الإِسلام أن تُسمى الدولةُ إسلاّميةً

---

(١) الحج ٤١ .

وهي لاتحّمل من خصائص الإسلام شيئا ؛ وحينئذ يُصْبحُ من واجب كل مسلم أن يَسْعى لتغيير أوضاعها السياسية والاجتماعية متى استطاع إلى ذلك سبيلا ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالتي هى أَحْسن .

لقد بدأتْ دولة الحكم الديني في العصور الوسْطى بخلْق بعض الامتيازات الثابتة لطوائف معّينة ، ثم ظَلَّتْ تحافظ عليها بكل ماتستطيع من قوّة ، فكان ينظر إلى الدولة على أنها لاتعدو أن تكون هيئةً من (العلمانيِّين) تعلوها طائفة (الكهنة) التي رفعتها عملية (التدشين)[1] فوق سائر الناس .

ولّما لم يكن القساوسة المسيحيُّون يُراعُون في زواجهم المحافَظة على طبقتهم لم تكن دعواهم تستند إلى سُلالةٍ إلٰهيه كما هو الحال عند (البراهمة) ، بل كانت تستند إلى قانونٍ إلٰهي ، فإن (روُح القُدُس) في أجسادهم وقد (دُشنوا) حسب نظام الكنيسة وبموافقتها ؛ ومن أجل ذلك كان أحقر الكهنة وأشدّهم فساداً يعتبر بمقتضى طبقته أسمى من الرجُل العلماني المشهور له بالفضْل كسُمُوِّ معدن الذهب على الحديد ، أو الروح على الجسد ، ولم تكن قوانين الدولة ملْزمةً لرجال (الإكليروس) ، بل كان من

(١) وفي العُرْف الكنسي : (الرُّسْم) .

حقّهم أن يبحثوا ويُقدّروا ثم يقرروا إلى أي حدّ يطيعون هذه القوانين باختيارهم ؛ وقد كان رجال (الإكليروس) يرفضون الطاعة إذا تعرضتْ امتيازاتُهم للخطر استناداً إلى قول الكتاب المقدّس : (علينا أن نطيع الله قبل طاعة الإنسان) .

أما الوضع في الإسلام فإنه مختلف من أساسه .

إن الإسلام قد خطّط وأبرز إلى الحياةِ نظاماً اجتماعيّاً لاموْضع فيه للمصالح الخاصة ، ولا للطبقات ، ولا للكهانة ، ولالوراثة الشرف أو وراثة الوظيفة ، وليس في الإسلام إنسان مهما علا وضعه الاجتماعي يُمكن أن يستثنى من القانون ، لأن الدولة الإسلاميّة دولة عقيدة لها غايات فكريّة محدّدة ، ولذلك فالْمُثُل العلْيا عندها أهمّ من الأشخاص ، فهي في الحقيقة حكومة دينيّة فيما يتعلّق بالله تعالى وشرْعه ، وحكومة (ديمقراطية) الأسلوب في علاقة الإنسان بالإنسان ، وإن التاريخ لمشحون بأمثلة مقاضاة الخلفاء وتعرّضهِم للنَّقْد علانيةً من رجالٍ ونساءٍ من عامّة الناس ، وهذا يبيّن أن الموظفين في الدولة الإسلامية يعتبرون مسؤولين في نَفْس الوقْتَ أمام الله وأمام الإنسان ، وللناس كل الحق في أن ينقدوا سلوكهم العام ، بل ونشاطهم الخاص .

والآن .... ، دعونا ننتقل إلى فرق آخر بيْن الحكومة الدينية والدولة الإسلاميّة ، لهُ أهميّتهُ وقيمتُه ومدلوله .

إن الذين يوجّهون مصائر الناس في الحكومة الدينية يُنْظر إليهم على اعتبار أنهم معصومون ، لأنهم ظِلّ الله على الأرض ، وصورته ، ويتلقون أوامرهم مباشرةً منه ، وليس للناس إذاً حقّ نُصْحِهم أو توجيههم ، فإنهم بذلك إنما يؤذون الله ، وبهذا المعنى تُصبح النصيحة إِثما ، والنَّقْد خطيئة ؛ وليس الأمر كذلك في الدولة الإسلامية .

إن الوحي الإلهي في الإسلام قد بلغ نهايته وقُصْواه بوفاة خاتم النبيين ﷺ ، ثم ألغى نفسه لانتهاء مهمتّه ، وإن عقيدة خَتْم النبوّة في الإسلام معناها أن يلجأ الناس دائماً إلى عقولهم وخبرتهم تحت راية القرآن الكريم والسنة ، وإرشادهما ؛ ولهذا المعتقد قيمتُه الفكريّة ، لأنه يعمل على خلْق اتجاه إنتقادي مستقل تجاه كل مالم يأتِ من فم الرسول« ﷺ » لأن الإسلام قضى على كل سلْطةٍ شخصيّةٍ تدّعى أنها ذات منشأٍ خارق للطبيعة .

و(الحاكم) في الدولة الإسلامية ــ بعكس الحال في الحكومة الدينية ــ يُطلب منه أن يستشير مجلس الشورى (كالبرلمان الذي ينتخب أعضاؤه اليوم) في كُلّ أمور الدولة الهامّة ، فليس بعد « محمد » ﷺ من يأتيه التوجيه المباشر من الله ؛ والقرآن الكريم يقول : ﴿ وأَمْرُهُم شُورى بَيْنَهُم ﴾ (١)

---

(١) الشورى ٣٨ .

وهذه الآية الصريحة ينبغي أن يُنْظر إليْها باعتبارها عاملاً جوهرّياً وأساسياً لهُ أثَرُهُ في رأْي الإسلام فيما يتعلَّق بإدارة أُمُور الدَّوْلة ، وهى آية عامّة تشمل كُلّ نواحي الحياة البشريّةِ ، وهي من الجلاء والوضوح بحيْث أن فحْواها لايُمكن أن يتبدَّل مهما تعسَّف الناسُ في تفسيرها ، وذهبوا فيها مذاهب شتّى ؛ وكلمة (أمْر) التي وَرَدتْ في هذه الآية تنطبق على كل عمل عام بما في ذلك الجهاز الذي يدير الدولة الإسلامية بطبيعة الحال.

وثمَّة فرْق آخر ، كبير ... ، بيْن الحكْم الديني والدولة الإسلاميّة ، وهو أن الحكْم الديني شيْء جامد متحجِّر ، ولذلك فهو ضيّق لايُساعد على التطوّر ؛ وليس من الصعب معرفة السببُ في ذلك ، فإن (الكهنة) في الحكومة الدينية تهمهم حياة الناس الدينيّة بالدرجة الأولى ، وليس الدين عندهم قوّة متحركة بل هو أمر يتعلّق بخلاص الإنسان ولاشأن له بالمجتمع ، ورجل الدين لاصلة له بالحياة العملّية وإنما هو مستغْرق تماماً في صلاةٍ وتأمُّل دائميْن ، في الدَّيْر أو في الصَوْمعة ، وحياته كلها تتحكّم فيها الشعائر والطقوس الدينيّة .

ونحن ، نستطيع أن نتبيّن بقليل من التفكير أنه من غير الممكن إحداث شيْءٍ من التغيير في مجتمع يعتبر اعتزال الحياة العامة من فضائل الأعمال !!!؟

إن مثل هذا النوع من الحياة لايلبث أن ينحدر في كثيرٍ من الأحْوال حتى يصل إلى نوعٍ من الهمجيَة والتوحُّش .

ولاشك أن الكهنة بتأكيدهم أهميّة الحياة الآخرة وقيمتها ــ وإن كان ذلك على حساب حياتنا الدنيا ــ قد أفلحوا في تنمية الجانب الروحيّ في الإنسان ، ولكن الفرديّة التي تتمَّيز بها مثل هذه الحياة تجعلها لاتجد أية قيمةٍ معنويّة في تشابك المصالح الاجتماعية بيْن بني الإنسان .

يقول « نومان » : (Nauman) في حديثه عن المسيحية الأولى : [إنها لم تكُن تجعل لصيانة الدولة أو القانون أو التنظيم أو الإنتاج أية قيمة ، بل ولم تكن تفكر في أوضاع المجتمع البشري] .

أما الإسلام ، فله موقف مخالف تماماً .

فليس في تعاليمه مكان للرهبنة بل هو يحضُّ الناس بكُلِّ قُوَّةٍ على أن يقوموا في الحياة بدوْرٍ فعّال ، لأن الحياة في الإسلام هي وديعة الله التي استوْدعها الإنسان ، وعليه لذلك أن يحيا حياةً جادَّةً نشيطة ، وأن يقوم بما في وُسْعِهِ لاستيعاب كل مافي الحياة من إمكاناتٍ حسْب شريعة الإسلام .

والإسلام لايعرف تقسيم الحياة إلى (دينية) و (سياسية) ؛

ومن الواضح أن الإسلام إذا كان عليه أن يوجّه الناس في كل مناحي الحياة ولكل الأزمان وتحت كل الظروف والأوضاع فلا بُدّ أن تكون شريعته متطوّرة متجدِّدة ، ولعلّ هذا هو السبب في أن الشريعة الغرّاء قد أعطتنا الخطوط العريضة ، والقواعد العامة فقط ، وتركت مجالاً واسعاً لنشاط المفكرين الأكْفاء كي يبحثوا في التَّفصيلات والجزئيات بما يناسب حاجة كل عَصْر ومستجدّاته ، مما جعل نظام الدولة الإسلامية سهْل التلاؤم مع الظروف المختلفة ، وحتى تبوّأتْ دائماً مركز الطليعة في التمدُّن والتحضُّر ، دون أن يضُرَّ ذلك بمثاليةِ الإسلام .

والحقّ أنّ كيفية تحقيق الإسلام لهذا الهدف مبحث هام وضروری ، وهو بيت القصيد ....

يقول الناقد (الهولندي) ــ « **هرغرونج** » : (Hurgronje)

[ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الإسلام له طبيعة مستوعبة شاملة ، وهي تظهر في مجال القانون أكثر منها في أي مجالٍ آخر . ونحن حين ندرس تاريخ تطوُّر القانون الإسلامي نلاحظ أنَّ فقهاء كل عَصْرٍ بينما كانوا يتبادلون النَّقْد والذَّم حتى يصل بهم الأمر في بعض الأحيان إلى تبادل الاتهام بالضلال والابتداع لأتْفه الأسباب ، كانوا في الوقت نفسه يتفقون جميعاً في محاولة التوفيق

بين الخلافات المشابهة التي ثارت بيْن أسلافهم من قبْل] .

وهذا الأمر يقودنا إلى الحديث عن مهمّة التعليم في الحكومة الدينية والفرْق بينه وبيْن التعليم في الدولة الإسلامية .

ولعلّه من الواضح أن الحكومة الدينيّة تزدهر في ظلّ الجهْل ، فلقد كان يُنْظر إلى العلْم على أنّه عدوٌّ للكنيسة وخطر على إيمان الإنسان ؛ وكانت كل الكتب عن الحياة الدنيا ومشاكلها المعقّدة تُستَنْكر بشدّةٍ ، وتُقْمع بعُنْفٍ بُحجَّة أن هذه المعارف إنّما تحوّل فِكْر الإنسان عن هدفه الشرعي السامي ؛ أما الإسلام فإنه يبني تعاليمه على العقل ، ولامكان فيه لرجُلٍ يقول كقول القديس « أوغستين » : (أنا أُومن لأن الأمْر لايُصَدَّق) .

والقرآن الكريم يحضُّ الناس على استعمال عقولهم وإدراكهم في شؤون دينهم ؛ يقول الأستاذ : « بكتهول » : (Pikthall)

[ولمّا كان العقل المظلم لايمكنه أن يُضيىء خطوات أيّ رجُل أو امرأة ، فقد تبع هذا الإعلاء لشأن العقْل أمْرٌ بتعليم الجميع ، فقال الرسول « ﷺ » : [طلبُ العِلْم فريضة على كل مُسْلِمٍ ومُسْلمة] (١) ؛ وأصْبَحَ التعليم العام قانوناً إلهياً من قوانين الإسلام ،

(١) الحديث رواه بن ماجة فى سننه بلفظ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم . وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب =

قَبْل أن تلْجأَ إليه مدنيةُ الْغَرْب بثلاثة عشر قَرْناً] (إ.هـ)

لقد ظل النبى ﷺ يؤكد أهمية العلم حتى ظن المسلمون أن من مهمتهم الأولى أن يحصِّلوه فجدُّوا فى طلبه بشوق وغيرة وشغف .

يقول « روبرت بريفّولْت » : (Briffovelt) في حديثه عن حماس المسلمين في طلب العلم : [لم يحْدُثْ من قبْل ولامن بعْد أن رأيْنا الطبقات الحاكمة في طول مثل هذه الرقعة الكبيرة وعرضها تستسلم إلى هذا الحدّ لمثل هذا الشغف المتهوِّس لتحصيل العلْم ... ، لقد بدا كأن العلْم بالنسبة إليْهم هو هدفُ الحياةُ الأوّل .

وكانت القوافل المحّملة بالمخطوطات وعيّناتِ النباتات تتردَّد بانتظامٍ بيْن « بُخارى » و « الدِّجْلة » وبيْن « مِصْر » و « الأندلُس » ، كما كانت البُعُوث ترسل إلى « القسطنطينيّة »

= المقدمة باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ١٠ / ٨١ . رقم ٢٢٤ .
وأورد السيوطى فى كتابه الفتح الكبير بروايات مختلفة . ٢ / ٢١٣ .
والزيلعى فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس . ٢ / ٥٦ .
وابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم وفضله . ١ / ٧ . « الناشر »

و« الهنْد » ، وليس لها من غرضٍ إلا الحصول على الكُتُب والمعلّمين] (إ.هـ) .

وأخيراً ، فإن الجهاز الاقتصادى في الحكومة الدينية يختلف تماماً عنه في الدولة الإسلامية ، فالحكومة الدينية لاتُعْنى أبداً بحاجات الجماهير المعيشية ؛ وليست الدولة مسؤولة عن ذلك بأي حال ، ولو كان الناسُ يموتُون جوعاً ، ويشكون العرى والتشردُّ ، ولايجدون من العناية الطبية مايردّ عنهم الموت ، فإن كل هذه الأمور إن هي إلا عقوبات يوقعها بهم الله لسيِّئات إقترفوها ، وليْس لوكلاء الله وأوليائه أن يتدخّلُوا في أعماله .

أما الوضع في الإسلام فيختلْفُ عن ذلك تماماً ، فإن الدولة في الإسلام مسؤولة عن توفير الحاجيات الضروريّة لكل مواطن من طعامٍ وكساءٍ وطِبٍ وتعليم ، والرسول ﷺ يقول : [أنا وَلِيُّ مَنْ لاوليَّ لهُ] . (١)

وبالإضافة إلى ذلك فكما يقول « ليوبولد رانْك » : (Leopold Ranke) في كتابه : « تاريخ الباباوات » أن نسبة كبيرة من

---

(١) جزء حديث رواه الإمام أحمد فى المسند ولفظه « من ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك دينا أو ضيعة فإلى وأنا ولىُّ من لاولىَّ له أفكُّ عنه وأرث ماله ، والخال ولىّ من لاولىَّ له يفك عنه ويرث ماله » ٤ / ١٣٣ . « الناشر » .

الدخْل في الحكومة الدينية كانت تضيع في هذه المناصب التي اعتادوا من مدّةٍ طويلةٍ أن يصرفوها بالبيْع ، وكان دخْل هذه المناصب يأتى أساساً من العوائد والرسوم ، وكان من يحصل على هذه المناصب بالشراء لايكاد يجد من يردّه عن ابتزاز الأموال من الناس ؛ وكان كل مايعود على خزائن البابا من ذلك هو الثمن الذي كانت تُباعُ به المناصب ثانيةً إذا شَغَرَتْ ؛ فكان من نتائج ذلك أن أصْبَحَ الْقُسُس والكُهّان (طفيليات) تعيش عالةً على المجتمع ، وتتمتّع بكل مافي الحياة من رفاهيةٍ ، على حين كان الفقراء يكادون يموتون جوعاً ؛

وهكذا بمرور الزّمن بدأتْ تنمو الفروق والامتيازات بيْن من يَمْلك ومن لايملك ، كما أن هذه الثروات التي بدأت تدخُل جيوب الباباوات بدونِ وَجْه حقّ أدارت رؤوسهم فأنْستْهم المثل العليا ، عن الحبِّ والأخوَّة ، التي عمل « المسيح » ــ عليه السلام ــ على ترسيخها وتثبيتها بين الناس ؛

والقرآن الكريم يقول ؛ واصفاً هذه الحالة المحزنة :

﴿ ياأَيُها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحْبار والرُّهبان لَيأْكُلُونَ أموال الناسِ بالباطل ويَصُدُّون عن سبيل الله ﴾ (١)

(١) التوبة ٣٤

وأما الإسلام فلا يعرف بَيْع الوظائف أو شراءَها ، وهو يُنْكر كُلّ نوْع من التطفُّل والعْيش بغيْر كدٍّ وَبَذْلٍ ، والرسول « ﷺ » يقول : [إن الله يُحبُّ العبْد المحترف] (١) والإسلام يؤكّد أهَمَّيّة العيش الشريف ؛ فالقرآن الكريم يقول :

﴿ ولا تأْكُلُوا أمْوالكم بيْنكم بالباطل وتُدْلوا بها إلى الحُكّام لتأْكلُوا فريقاً من أموّال الناس بالإثم وأنْتُم تّعلَمون ﴾ (٢)

والإسلام فوق ذلك يكرهُ تركيز الثروة في أيْدٍ قليلة ، ويعمل على إيجاد نظام اقتصادي يدفع بالبشريّةِ في طريقِ التقدُّم والفلاح بضمانِ تداول الثروة بحُرِّيَّةٍ ووفْرةٍ ودِقّة .

وهو يهدم نظام الرِّبا ويقيم نظام الزكاة الذي هو نظام ضُخم للتأمين الاجتماعى ، وبه تنتقل الثروة من الأغنياء إلى الطبقات الفقيرة ، وبذلك تُفْتح مجالات جديدة للتوظيف والاستثمار .

والإسلام يمنع اكْتناز المال مَنْعاً باتاً وينذر المخالفين بالعقوبات الشديدة في الآخرة ، فيعلن القرآن الكريم ذلك بوضوح حين يقول : ﴿ والّذين يكْنِزُن الذَّهَبَ والْفِضَة ولايُنْفقونها في سبيل الله

---

(١) الحديث ورد فى كتاب الفتح الكبير بلفظ « إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف » ١ / ٣٥٤ . « الناشر » .

(٢) البقرة ١٨٨ .

فَبَشِّرْهُم بعذاب أليم ﴾[1]

يضاف إلى ذلك أنّ عِبْء الضرائب في الحكومة الدينية يقع كله على كاهل الفقراء ، على حين كان الغنيُّ يُعفى من كُلّ أنواع الضرائب حتى أن قانون « مانو » : (Manu) يقول بصراحةٍ أن الملِكَ لايملك أن يفرض ضريبة على (برهمي) مُطّلِع على الكتُب المقدْسة أو يتركه جائعاً ولو كان الملك نفسه يموت من الحاجة .

لقد كانت طبقة الكهنة في غُنيٍّ عن الاشتراك في الكفاح من أجل قوتهم ، فقد كانت تأْتيهم موارد هائلة من أراضيهم التي تَنْتج ذهباً ولاتكلّفهم مالاً ، فقد كان الفقراء يشْقون ليسقُوا بعرقهم ودَمِهم الأراضي التي تصُبُّ الأموال على طبقة الأسياد ، القاسية قلوبهم .

لقد كانت تحت تصرُّف هذه الطبقة موارد لاتَنْفد من العاملين بالسُّخرة الذين كانوا يرزحون تحت أقدام هذه الأقلية المستبدّة ، ويرتعدون إعياءً تحت وَطْأة الأثقال الاقتصادية التي يلقيها الكهنةُ على ظهورهم .

وعلى هذا فقد كانت الطبقات الدنيا واقعةً تحت ظُلْم شديد ، وعُرْضةً لكُلّ أنواع القسوة والعُنفْ الفاحش .

---

(١) التوبة (٣٤) .

أما في الدوْلة الإسلامية فإن نظام الضرائب على عكس ذلك تماماً ، إذ أن الضرائب تُفرضُ على الأغنياء حتى لاتتركّز الثروةُ في أيْدٍ قليلة ، بل تُصبح حُرَّه التداول بيْن الناس ، والغرض الأساسي من الضرائب هو التخفيف عن الكادحين المتألّمين وإنشاء بل إشاعة جوٍّ من العدالة والإنصاف ، ومن أجل ذلك فهى تُؤخذ من الغنيّ لتُعطى للفقير ، والقرآن في هذا واضحٌ أشدّ الوضوح ، فهو يفرض على رأْسِ الدَّوْلة أن يساعد المحتاجين بأموال الأغنياء ، يقول تعالى : ﴿ وَفي أمْوالِهِم حقٌ للسائِلِ والمحروم ﴾ . (١)

ولعلّ أوّل واجب للدولة الإسلامية تأمين الحاجات الضرورية لأولئك الذين أخْفقوا في الحصول عليها ، أو حرمتْهم الطبيعة من القدرة على تأمينها .

إن هذه الدراسة المختصرة ، توضح لنا أن الحكومة الدينية تختلف تماماً عن الدولة الإسلامية ، ونظامها ..، فهما يختلفانِ في أساس فلسفتهما ، وفي مثلهما العُلْيا ، وفي اتجاهاتهماالثقافية ، وفي نظامهما السياسي والاجتماعي والاقتصادي ..، أي أنهما يختلفان اختلافاً جوهرّياً في كل شيء .

ومع كلِ هذه الاختلافات الأساسية ، البَيِّنةِ الواضحة ، فإن

الدولة الإسلاميّة ــ لسوء الحظ ــ كثيراً مايُخْلط بيْنها وبيْن الحكْم الديني ...!؟

ولقد تكرر ترداد هذه النغمة حتى سَئِمْناها ؛ وعسي أن يُدْرك الغافلون ، أو المتغافلون ..، أن الحديث المشوَّش ليس من المؤهّلات المنطقية في الأبحاث السياسية

والحمد لله أوّلا وآخراً .



رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥١٢ / ٨٥
الترقيم الدولى ٢ ــ ٣٧ ــ ١٤٢٠ ــ ٩٧٧

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



نحو عقلية إسلامية واعية

٧

الدولة الإسلامية والحكومة الدينية

محمد علي قطب



* * سلسلة نحو عقلية إسلامية واعية :ـــ

١ ـــ العصريون معتزلة اليوم	يوسف كمال
٢ ـــ جذور العلمانية	د. سيد فرج
٣ ـــ الدولة والسياسة فى فكر حسن البنا	جابر رزق
٤ ـــ تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه	عبد المجيد صبح
٥ ـــ قوى الشر المتحالفة (الإستشراق ـــ التبشير ـــ الإستعمار)	فضيلة الشيخ محمد الدهان
٦ ـــ شبهات حول العصر العباسى الأول	د. مؤيد فاضل ملاّ رشيد
٧ ـــ الدولة الإسلامية والحكومة الدينية	محمد على قطب
٨ ـــ نظام الإسلام السياسى	محمد على قطب
٩ ـــ الزواج الثانى	عبد الحليم خفاجى
١٠ ـــ فى وجه المؤامره على تطبيق الشريعة الإسلامية	د. مصطفى الشقيرى
١١ ـــ مستقبل الحضارة	يوسف كمال

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة – أمام كلية الطب

– ص.ب : ٢٣٠

DWFA UN ٢.

